شهر اللّه .. شهر النّاس

*الشيخ حسين كوراني

من الأخطاء الشائعة، وبنسبٍ متفاوتة تختلف درجاتها شدّة وضعفاً، الفصلُ بين الحديث عن «وليّ الله، النبيّ أو الإمام» وبين الحديث عن توحيد الله تعالى. ومنشأ هذا الفصل هو تَوهُّمُ أنّ توحيد الله تعالى يعني عدم الحديث عن غيره، لأنّ الحديث عن غيره تعالى «شركٌ»! فتوحيد الله تعالى يعني عند هؤلاء الإعراضَ عمّا سواه، سواء كان «ما سواه» هو رسول الله أم أهل البيت أو غيرهما! ويتفرّع على هذا الخطأ:

أولاً: توهُّمُ أنّ ولايةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، أو ولاية أهل البيت عليهم السلام، هي غير ولاية الله تعالى

يؤكّد القرآن الكريم على أنّ المحور في طاعة الله تعالى، وفي حُبّه عزّ وجلّ، هو الموقف من الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ..﴾ النساء:80، ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ آل عمران:31، وأنّ المحور في التوبة الحقيقية وعدمها هو الوقوف بباب رسول الله: ﴿.. وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ..﴾ النساء:64.

وهذا يكشف بوضوح عن اقتران التوحيد بالوقوف بباب رسول الله، واتّباعه صلى الله عليه وآله. ومن الواضح أنّ الموقف من أهل البيت عليهم السلام ليس في حقيقته إلاّ الموقف من رسول الله صلى الله عليه وعليهم، ومن المُتسالَم عليه عندنا أنّ ما ثبت له صلى الله عليه وآله فقد ثبت لهم، ماعدا النبوّة ومختصّاتها. وقد أجمع المسلمون على وجوب الإعتقاد بأهل البيت ووجوب حبّهم عليهم السلام، وهو يعني ـ في ما أنا بصدده ـ أنّ طاعتهم وحبّهم عليهم السلام، علامةُ صدق التوحيد.

ويندرج في طاعتهم عليهم السلام، طاعةُ الفقيه الوليّ، أي التزام ولاية نائب الإمام المعصوم، الفقيه الجامع للشرائط الذي هو ولي الأمر بالنّيابة في زمن الغَيبة. والنتيجة العمليّة: ليست ولاية رسول الله ـ وما هو بحكمها من ولاية أهل البيت عليهم السلام ـ غير تجلّي ولاية الله تعالى، فلا معنى للفصل، بل لا معنى لعدم التنبُّه إلى «الترابط – التجلّي».

لا يقف الموحِّد بباب رسول الله ﷺ إلا لتوحيد الله تعالى والإلتزام بمُقتضيات هذا التوحيد، وتحصينِ نفسه من الإنحراف عن التوحيد وهو يحسب أنّه يحسن صنعاً.

ثانياً: الفصل بين شهر رمضان وبين رسول الله

ويتفرّع على هذا الخطإ الشائع، الفصلُ بين شهر رمضان، وبين رسول الله ﷺ، أو وصيّه المهديّ المنتظر أرواحنا فداه، بمعنى الإحساس بأنّ لشهر ربيع الأول ـ مثلاً ـ علاقة مميّزة برسول الله، ولشهر شعبان علاقة مميّزة به وبوصيّه صلى الله عليه و آله، إلا أنّ شهر رمضان بعيدٌ عن العلاقة المتميّزة بهما، فهو موسم العلاقة بالله تعالى، والأُنس به سبحانه، ومناجاته والحديث معه، من دون الحديث مع أحد، ولا حتى عن أحدٍ سواه!

ولا شكّ في أصل هذا التصوّر عن شهر رمضان، إلا أنّه لا يُفهم على حقيقته، فيلتبس الحقّ بالباطل إلى حدّ الحاجة إلى المعصوم لكي يُنَقِّب الباطل ويستخرج الحقَّ من خاصرته، كما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام.

كلّ ما تقدّم عن شهر رمضان، وأنّه موسم العلاقة بالله تعالى، والأُنس به ومناجاته سبحانه، حقٌّ صُراح، ولكنْ كيف تُبنى العلاقة به تقدّست آلاؤه، وكيف يُمكن التمييز بين الأُنس بالله وبين الأُنس بحظوظ النفس، أو الصنم الذي يُتصوّرُ أنّه الله! وكيف يُمكن الجزم بأنّ من يتحدّث معه مُدّعي التوحيد هو الله تعالى؟

كيف يعلم من يريد أن يكون موحِّداً أنّ توحيده لله تعالى حقيقيٌّ وليس من قبيل ما صوّره الشاعر بقوله:

لك ألفُ معبودٍ مُطاعٌ أمره
دونَ الإله وتدّعي التوحيدا

هل يُمكن معرفةُ سلامة التوحيد إلا من رسول الله ﷺ، وهل يمكن التأكّد ممّا قاله رسول الله إلا بالتزام «المودّة في القربى»؟

بمقدار استحضار «أشهد أنّ محمداً رسول الله» في كلّ آناء شهر رمضان، بل العمر كلّه، تكون الإفادة الأفضل

من بركات شهر رمضان الإلهيّة.

ثالثاً: الفصل بين شهر رمضان وأهل البيت

قد يدخل المسلم بيت الله الحرام أو أيّ مسجد، وينسى صاحب البيت وربّ البيت، فيتحقّق فيه الفصل بين البيت وربّ البيت.

لذلك كان من الضروريّ جداً التنَبُّه إلى عدم الفصل بين البيت وبين ربّ البيت، كما أنّ من الضروريّ جداً التنَبُّه إلى عدم الفصل بين البيت وبين أهل البيت.

من معاني أنّ شهر رمضان شهر ضيافة الله، أنّ الشهر الكريم كلّه بمثابة بيت الله، والنّاس كلّهم ضيوفه سبحانه: «أيها الناس "..." شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله».

ومن معاني الضيافة أنّ رب البيت يوجّه الدعوة، وأهلُ البيت يستقبلون الضيوف، فأهل البيت - كما عبّر الإمام الخميني - «فوق الضيافة».

فهل يصحّ الفصل بين شهر رمضان وبين رسول الله وأهل البيت صلى الله عليه وعليهم أجمعين؟ لأنّ هذا الفصل لا يستقيم، حتى إن كان بنسبة عمليّة ضعيفة جداً في ذهن من يؤمن نظريّاً بعدم الفصل، كان من سلامة المُعتَقَد أن نركّز فينا على الدّوام أنّ شهر رمضان شهر رسول الله إلى الناس، وشهر أهل البيت حُجج الله تعالى على الناس، لئلا يكون للناس على الله حجّة، ويحيا من حيَّ عن بيّنة.

وفي سياق تثبيت الترابط وعدم الفصل بين شهر الله تعالى وبين ولي الله - سواءً كان النبيّ الأكرم، أم خلفاءه الإثني عشر - جاء تأكيدُ رسول الله ﷺ على محوريّة العلاقة بين شهر رمضان وبين عليٍّ عليه السلام في أبرز خُطب رسول الله حول شهر رمضان، وهي الوثيقة الخالدة لكلّ الأجيال حول عظيم موقع شهر رمضان والصوم، في التزام ولاية الله تعالى المتجليّة برسول الله وأهل بيته الأطهار.

رابعاً: الفصل بين شهر رمضان وبين المهديّ المنتظر

شهر رمضان، شهر القرآن الكريم وليلة القدر. والقرآن عهدُ الله إلى خلْقه لتطبيقه والتزام حدوده. وليلة القدر باقية ما بقي الدهر، ولا بدّ من وجود وليٍّ لله تعالى وحجّةٍ له سبحانه على خلْقه في كلّ عصر، ليكون هذا الوليُّ صاحبَ الأمر الذي يُتنزَّلُ في ليلة القدر.

وصاحب الأمر في زمن رسول الله هو نفسه صلى الله عليه وآله.

فمن هو صاحب الأمر من بعده؟

أجمعت الأمّة على وجوب وجود قائم لله بحجّة في كلّ عصر، وأجمعت الأمّة على أنّ هذا القائم بالحجّة يجب أن يكون من أهل البيت عليهم السلام: «ما إن تمسّكتم بهما»، «فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض».

وأجمعت الأمّة على ظهور المهديّ المنتظر.

ولئن أمكنَ لموجات التحريف التي اعتمدتْها أنظمةُ الجور أن تكثّف الضباب والحُجبَ في تطبيق المهديّ المنتظر، على المهديّ المولود الموعود ابنِ الإمام الحسن العسكريّ، فما عذرُ مَن يعتقد بهذا التطبيق حين يفصل بين شهر رمضان وبين صاحب الأمر الذي يُتنزّل في ليلة القدر.. المهديّ المنتظر.

كم هو جديرٌ بالتأمّل استحبابُ تكرار دعاء «أللهمّ كن لوليّك الحجّة بن الحسن» في كلّ آناء شهر رمضان، وفي خصوص ليلة ثلاثة وعشرين من شهررمضان، قائماً وقاعداً وعلى أيّ حال كان المؤمن؟

خامساً: الفصل بين القرب من الله وبين القرب من الناس

شهر رمضان شهرُ القرب من الله تعالى، والأُنس به سبحانه، إلاّ أن القرب منه جلّ ثناؤه رهنُ القرب من الناس، وحبِّهم وخدمتِهم بكلّ ما أمكن، حتى إن كانت هذه الخدمة تقديم النفس في سبيل الله تعالى لرفع الأغلال عن الناس، وتحريرهم من براثن الشيطان وأوليائه الطواغيت.

ليست بدر، والنهج البدريّ – الكربلائيّ إلاّ تقرّباً من الله تعالى عبر خدمة الناس.

وليس اعتبار هدف الصوم أن يجد الغنيُّ مسَّ الجوع ليواسي الفقير، إلاّ تعبيراً آخر عن تلازم القرب من الله تعالى مع القرب من الناس.

وعليه فإنّ التقرّب إلى الله تعالى لا ينفصل عن التقرّب إلى الناس، بل إنّ التقرّب إليه جلّت عظمتُه هو نفسه التقرّب إلى الناس كما أمر ربّ النّاس: تزكية النفس، وعدم ظلمها، العدل في الأُسرة، حقُّ الجار، صِلة الرّحِم، البرّ إلى المؤمن والكافر، لينُ القلب حتى مع الحيوان بل والجماد، حمل همِّ رفعِ الظلم والإصر وتحطيم القيود والأغلال.

ذلكم هو شهر الله، شهر الناس، ﴿لعلّكم تتّقون﴾.

أللهمّ ارزقنا.